الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية الآداب والحضارة الإسلامية
نيابة العمادة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

تقرير حول نشاط علمي موسوم :

قراءة في كتاب محمد العيد آل خليفة أمير شعراء الجزائر والشمال الإفريقي

الأعمال الشعرية الكاملة – جمع وتحقيق

ازدانت المكتبة الجزائرية والعربية مؤخرا بمؤلف قيم موسوم بالعنوان المشار إليه أعلاه ، لصاحبه الأستاذ الباحث باسم بلام، من قسم اللغة العربية بكلية الآداب والحضارة الإسلامية، ويعتبر إعادة بارعة لتشكيل هذه الأعمال وفق سياقها المرجعي الأدبي ومسارها التاريخي الاصلاحي ، وهو بهذا العمل المتميز، أسهم بقوة في صنع هذا البلد العظيم، مشتركا مع الشاعر محمد العيد آل خليفة في تحويل النصوص الشعرية، إلى ثوابت تستند إليها أمتنا لاتخشى في ذلك المحن، فالكاتب سلك بحسه التأليفي المتميز الكشف عن مقدرة الشاعر الشاملة في تفاعله مع الأحداث والوقائع، وفي محافظته على تقاسيم بلده وأمته بكل معالمهما وامتداداتهما ، وفي اعتقادنا أن باسم بلام بتسليمه هذا الكنز لأبناء وطنه وأمته ولغيرهم من القراء، قد وقَع على دوام هذا الإرث وخلوده، ليشتغل عليه في الأدب والفكر والتاريخ والدين، يظهر ذلك في تلك الأبواب الثمانية، التي توزعت على كل الاغراض ، واستوعبت كل الانشغالات والتداعيات والرؤى، والمحاورات والتحديات. فالكتاب لم يقف عند الجمع والتصنيف فحسب وإنما تجاوز النص ليلاحظ ويضيف، وينقد ويوجه، فكان متسلحا في النفاذ إلى عمق النصوص نفاذا يكشف مرة أخرى خصوصية جديدة في الشعر الجزائري ، الذي تحركت به أحاسيس الشاعر، فنُفثت في ديباجة المؤلف لغة وشعرا وعروضا وقصيدا وفكرا وذوقا وأصالة ومرجعا،ما يجعله جديرا بالتقدير . والتقدير في تصورنا يبدأ عندما يكرس الإنسان نفسه للعلم ويعمل جاهدا على إضاءة المغاليق والمعالم الجديرة بالظهور ولا سيما إذا ارتبطت بشخصية شعرية

إصلاحية عظيمة ممثّلة في شخص محمد العيد آل خليفة، الذي كانت له أنفاسه الشعرية الخاصة ورؤاه الإبداعية البانية ، التي أنشدت للإنسان وغنت للحرية وطربت للحياة وخلّدت للجزائر أمجادا راسخات رسوخ الجبال تحكيها الأجيال ولا تسأم ، وتصدّرها للعوالم وهي منتشية، بأنها من نبت هذا الوطن الكبير، ومن صدى شاعر غازل القصيد لأجل القيم، في وقت عزّ فيه الكلام، فعاش وعاشت طموحاته نسغا يسري في الأعراق ليؤكد عراقتنا في البوح والإبداع.

وأن يعمل باحث ،شاب على جمع أشعاره كاملة ليضمّها كتاب بأجزاء ثلاثة ، ويقوم على دراستها وتحقيقها ، فهذا ليس بالعمل السهل ولا الهيّن، وإنّما هو دليل اتزان معرفي ، وإحساس عميق بالمسؤولية اتجاه الموروث الشعري الجزائري ، الذي يستحق من الأجيال أن تلتّف حوله ،وتشتغل على إحيائه وإنعاشه ،تأكيدا للخصوصية ، وتفعيلا للإنّيّة الحضارية ، وتثمينا لفكرة المجايلة ، التي رمى بخيوط وجودها هذا الجهد المقدّم ، ليؤكد أنّ شعرية المعنى ترفل بخيوط من نور وهي تؤسس لثقافة الاعتراف بجهود العلماء والشعراء في التّمكين للمعرفة الوجدانية والشعرية بما يدفعنا للقول بأنّه يبقى في ذاكرة التاريخ ما يؤسّس له الشعراء، إذا توفر في الجهد العلمي المبذول ،الدقة والعمق وحسن التنقيب والتّحقيق كما هو الشأن في هذا المنجز .

إنّ تصدير رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة للكتاب لدليل اعتراف على قدرة الشباب على حمل، المشعل وقدرة العظماء من أمثال أمير الشعراء محمد العيد آل خليفة على إبقاء الذاكرة حيّة، وتذييله بتقديمين لشاعرين كبيرين لهما صداهما في الساحة الشعرية الجزائرية والعربية وهما الشاعر: سليمان جوادي والشاعر ناصر لوحيشي هو في الحقيقة دليل آخر على استمرار وهج الشعر الجزائري وامتداده في كل الأمصار ليؤكد أصالته الضاربة في أعماق التاريخ ، ويؤكد أيضا أنّ الجزائر أرض ولود ،للشعراء والأدباء والباحثين في كل مجال ، وأنّ الجهد المبذول في سبيل المعرفة مهما خفي ،فلا بد وأن يكشف التاريخ عنه طال الزمن أو قصر .

وتثمينا لجهود الأستاذ الباحث سهر قسم اللغة العربية بإشراف عمادة الكلية على تكريس هذه الندوة لقراءة هذا العمل المتميّز بإسهام ثلة من الأساتذة هم على التوالي :

- أ.د/ السعيد دراجي مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية
- د/ نورالدين ثنيو عميد كلية الآداب و الحضارة الإسلامية
- أ.د/ رشيد قريبع جامعة الإخوة منتوري قسنطينة
- أ.د/ ذهبية بورويس جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- أ.د/ ناصر لوحيشي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- أ.د/ آمال لواتي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- د/ ليلى لعوير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- د/ رياض بن الشيخ الحسين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والذين اكتشفوا من خلال مقدمته التي كتبها شارحا فيها طريقة العمل ،قوة اللغة التي تستمد من التراث عبقها وجمالها ورصانة معانيها ،وعمق الأفكار التي تستأنس بمرجعياتنا العلمية والنقدية ، وجمال الأسلوب الذي يوحي بأنّ المؤلف له في فن القول ما يجعلنا نفرح مرّتين : مرّة بالمنجز، و مرّة بأنّ هذا المنجز صدّر لنا شاعرا جديدا هو من نسل محمد العيد آل خليفة في غيرته على الأرض والعرض والشعر فهنيئا له وللجامعة.

محمد العيد آل خليفة

أمير شعراء الجزائر والشمال الإفريقي

الأعمال الشعرية الكاملة

الجزء الأول

تصدير بقلم

فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة

رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جمع وتحقيق

الأستاذ باسم بلام

أستاذ الأدب الحديث والمعاصر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

دار الصابر
وزارة الثقافة

محمد العيد آل خليفة
الأعمال الشعرية الكاملة
الأستاذ باسم بلام
الجزء الأول

تقريظ

الحلم الذي تحقق

شاعر الجزائر :سليمان جوادي

جمعت والدي رحمه الله علاقة حميمة وطيدة بأربع شخصيات أدبية و فكرية ينحدر جميعها من الجنوب الشرقي لبلادنا و قد كانت أسماؤها تتردد في بيتنا حتى كأنها من بعض أفراد العائلة ، هذه الشخصيات هي الشيخ عبد المجيد حبة المختص في علم الأنساب و العروض و الأستاذ حمزة بوكوشة الشاعر المصلح و الشيخ مصباح الحويذق الإمام المتمرد الذي يعده البعض الأب الروحي للإسلام السياسي في الجزائر و أخيرا محمد العيد آل خليفة صاحب ديواننا هذا و قد سمحت لي الظروف بالتعرف على المرحومين عبد المجيد حبة و حمزة بوكوشة في حين حالت دون التعرف عن قرب على الشيخين مصباح الحويذق و محمد العيد لكن هذه الظروف كانت مساعدة على التقرب من شخصية هذا الأخير و التعرف على شعره وسيرته في سن مبكرة من عمري إذ قرأت رائيته المطولة التي نشرت على أجزاء في مجلة المعرفة التي كانت تصدرها وزارة الأوقاف كما حظينا أنا و الوالد بهدية غالية على القلب ممثلة في نسخة من الطبعة الأولى من ديوانه الذي قرأته مرات عدة و حفظت كثيرا من قصائده و تولدت لدي ما يشبه العلاقة الروحية بيني وبين الشيخ محمد العيد الذي كان محل إشادة من قبل الوالد حيث كان يثني كثيرا على أخلاقه الموسومة بالتواضع و نكران الذات و يحدثني عن زهده و ورعه و تصوفه كما كان لرأي الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي – و هو من هو علما و أدبا – فيه و في شعره الأثر البالغ الكبير في تقريب و تحبيب محمد العيد و شعره إلي هذا فضلا على انحدارنا من نفس البلدة و هي بلدة كوينين الجميلة الآسرة التابعة لولاية وادي سوف. و اليوم و أنا أتصفح ديوان الشيخ الجليل و الشاعر الفذ الكبير محمد العيد آل خليفة في هذه الصورة الجميلة المتكاملة المنسقة المحكمة الترتيب و التبويب التي أشرف عليها مشكورا ابننا و صديقنا الأستاذ الفاضل باسم بلام حفظه الله فإنني ألمس حلما قديما قد تحقق و أمنية غالية قد تجسدت في جمع كل أعمال هذا الشاعر المجاهد المصلح و تقديمها للأجيال في أبهى حلة تليق بمقام أديب سخر حياته و أدبه لأمته و رجل أفنى زهرة شبابه في الذود عن حياض هذا الوطن المفدى بما حباه الله من مواهب و خصال و ما جبلت عليه نفسه الحرة الأبية من أنفة و عزة و كرامة . إن المجهود الطيب المشكور الذي بذله صديقنا الدكتور باسم بلام في حسن تحقيقه و تدقيقه وجمعه و ترتيبه لشعر يعد سجلا صادقا لمرحلة من أدق المراحل التي مرت بها الأمة الجزائرية يعد من الأعمال الجليلة التي يقدمها جيل الاستقلال للجزائر أولا و لروح الشيخ محمد العيد ثانيا

إن الاهتمام بشخصية في حجم و قامة الشيخ محمد العيد آل خليفة و بآثاره هو في الحقيقة رد لجميل جيل من الأدباء و المفكرين و المثقفين الجزائريين الذين سخروا فكرهم و ملكتهم و مواهبهم من أجل أمتهم و شعبهم دون أن ينتظروا مقابلا ماديا و لا حتى معنويا بل كان همهم كل همهم أداء رسالتهم على أكمل وجه و تبليغها للأجيال في أبهى و أجلى و أصدق صورة والله الموفق لما فيه خير البلاد و العباد

سليمان جوادي

البليدة في 01 سبتمبر2016

تقديم

أ.د/ ناصر لوحيشي

وَجدتُني في مأزِقٍ متلاحِمٍ حينَ عهِدَ إليَّ الأستاذُ الفاضِلُ باسمٌ بلّام، وطلَبَ منِّي أن أُقدِّمَ لمؤلّفِهِ المتميِّزِ عن القامَةِ الشِّعريَّة السَّامقة (محمَّد العيد آل خليفة)، ووَجدتُني في حيصَ بيصَ كما تقولُ العربُ وقد كثُرَت التزاماتُنَا وقلَّت أوقاتُنَا في ذيل هذا العامِ الجامعيِّ.

فما عَسَاني أقولُ؟! وقد طلَعَ عليَّ مشروعُ الأستاذ باسم على كثرَةِ الأشغالِ والأعباءِ العلميَّةِ. ولكنَّ جذلًا اعترَاني، فكانَ ذلكَ ما سلَّى المشتاقَ، ونسَّى الذَّاكرَ، فاعتَنَّ لي تمسُّكٌ بالوفاءِ، ورعيٌ لسالِفِ الذِّممِ، ووَكيدِ المودَّاتِ، وحقِّ النَّشأةِ، ومحبَّةِ الصِّبَا –بتعبير ابن حزم–، ولقد كشَفَ إقبالُ الأستاذ باسمٍ على هذا المشروع الضَّخمِ أغراضًا نبيلةً ساميةً، أبانَتْ لي عن جهودِهِ الطَّيِّبة، يَحدُوهُ في كلِّ ذلكَ سجيَّةٌ مُوَاتيةٌ، وحرصٌ أكيدٌ، ووُدٌّ صحيحٌ، وعزمٌ باهرٌ. ولا غروَ في ذلكَ وهو الباحثُ الَّذي تسقَّطَ ثمراتِ محمود شاكر، وتشرَّبَ نبعَ العربيَّةِ تشرُّبًا، وتنسَّمَ أنفاسَهَا تنسُّمًا، وكانَ وُدُّهُ صُرَاحًا خالِصًا، كأنَّمَا تمثَّلَ قولَ الشَّاعرِ:

أَوَدُّكِ وُدًّا لَيسَ فِيهِ غَضَاضَةٌ   وَبَعْضُ مَوَدَّاتِ الرِّجَالِ سَرَابُ

ما أجملَ الباحثَ حينَ يعودُ إلى الشِّعرِ الصَّافي، والنَّبعِ الفيَّاضِ، والمعِينِ الَّذي لا يَنضَبُ...، يُخرِجُهُ إلى النَّاسِ نقيًّا أليلًا، وقد حوَّرَهُ تحويرًا (بيَّضَهُ)، وأزالَ عنه شوائِبَهُ.

هكذَا فعَلَ الباحثُ الأديبُ الأستاذُ باسم بلَّام مع ديوانِ أميرِ الشُّعراءِ الجزائريِّينَ، شاعرِ الجمعيَّةِ (محمَّد العيد آل خليفة).

أَذكُرُ أَنَّني حينَمَا كنتُ أُدرِّسُ شعرَ (محمَّد العيد)، كم مرَّةٍ تَستوقِفُني بعضُ أبياتِهِ، ويَظلُّ لساني مردِّدًا منشدًا:

وَدَرْسُكَ فِي التَّفْسِيرِ أَشْهَى مِنَ الجَنَى   وَأَبْهَى مِنَ الرَّوْضِ النَّضِيرِ وَأَبْهَرُ

وكم مرَّةٍ يَعتورُني انتشاءٌ، فَتَلبسني الكبرياءُ وأنا أَتلُو قولَ (محمَّد العيد):

نَحْنُ الجِبَالُ بَنُو الجِبَا   لِ صَدَى الجِبَالِ بِنَا حَدَا

مَنْ سَامَنَا بِإِذَايَةٍ   فَعَلَى الجِبَالِ قَدِ اعْتَدَى

راحَ باسم بلَّام جامعًا شعرَ (محمَّد العيد)، منقِّحًا محقِّقًا، مدقِّقًا مدنِّقًا، يُزجِيهِ أملُ إخراجِ الدِّيوانِ في حلَّةٍ بديعةٍ، وصورةٍ رفيعةٍ، ومظهَرٍ لا صدعَ فيه. فلقد ضمَّ الأصولَ الشِّعريَّةَ في عملٍ واحدٍ، معيدًا ترتيبَ القصائِدِ، جاعلَهَا في أبوابٍ متَّسقةٍ منسجمَةٍ، مع ضبطِ النُّصوصِ ضبطًا متقَنًا، وشرحِ ما اعْتَاصَ من لفظٍ كان غريبًا عند المتلقِّي، وتحديدِ

بحورِ القصائِدِ جميعِهَا، مع إثباتِ ملاحقَ هامَّةٍ، ووضعِ فهرسٍ للقصائِدِ حسَبَ القَوافي. فجاءَ عملُهُ ممتازًا من حيثُ الصَّنعَةُ العلميَّةُ، وكذاكَ عوَّدَنَا في باقي أعمالِهِ.

وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ، فإنَّ الحاجَةَ إلى هذا العمَلِ ماسَّةٌ ملحاحَةٌ، إذ لا يَجوزُ الغِنَاءُ عنه بأيَّةِ حالٍ، خاصَّةً للمشتغلينَ بالشِّعرِ في الجزائر. فهنيئًا هنيئًا...

وأمَّا قبلُ؛ فإنِّي أَشكُرُ لأخي الكريمِ الأستاذِ باسم الذَّلِقِ الدَّمِثِ الذَّوَّاقةِ تقديرَهُ لي، وظنَّهُ بي، وأَعتذِرُ إليه وإلى القرَّاء.

وَقَدْ تَقْبَلُ العُذْرَ الخَفِيَّ تَكَرُّمًا   فَمَا بَالُ عُذْرِي وَاقِفًا وَهْوَ وَاضِحُ

وجزاكَ الله عنِّي كريمَ الجزاءِ أيُّهَا الباحثُ الأديبُ.

أ.د/ ناصر لوحيشي

قسنطينة في 29 رمضان 1437هـ 04 جويلية 2016م

مقدِّمة الكتاب :

الحمدُ لله الَّذي خلَّقَ من الشُّعور شعرًا، وفتَقَ من أَلسُنِ العربِ المناطيقِ كلامًا تِبرًا، وأجالَ على أَسَلاتِ أَلسنتِهِمْ آياتٍ تَتْرَى، فكان البيانُ آيتَهُ الكبرى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ القُرشيِّ لغةً وذِكْرًا، من استنشدَ الشِّعرَ وأجازَ عليه وأَقْرَى، وحضَّ أصحابَهُ على أن يَقرضُوهُ شواظًا يتلهَّبُ جمرًا، ويَنظمُوهُ لآلِئَ تَزدانُ بالحكمة سحرًا، وعلى آل بيتِهِ أهل البلاغة الغَرَّا، وأصحاب الفصاحة العَذْرَا، وعلى أصحابِهِ الخُطباءِ والشُّعَرَا، مَنْ كانوا في حلبَةِ القول السَّادةَ الأُمَرَا. أمَّا بعدُ:

فإنَّ في الشِّعر غوايةً ليست توجدُ إلَّا فيه، ولا يَتذوَّقُ معسولَهَا إلَّا من أَدمنَ تعاطيه، إذ مهما علَتْ طبقةُ النَّثر، واتَّسعت مناحي البَوح فيه، وانبسطَتْ مَلَكَةُ الأديبِ في النَّسجِ على ضروبِهِ الممهَّدَاتِ، فإنَّه تَبقى للشِّعر فضيلةُ الوزن والموسيقى، وقد رَكَزَ اللهُ في طبائع البهيميَّة بَلْهَ الإنسانيَّةَ حُبَّ الموزونِ من الأَنغامِ، والمنظومِ من الأَصواتِ والأَلحانِ:

تَغَـــنَّ بِالشِّــــعْرِ إِمَّـــا كُنْـــتَ قَائِلَـــهُ

إِنَّ الغِنَـــاءَ لِهَــذَا الشِّــــعْرِ مِضْــــمَارُ

يقولُ (ابنُ خلدون) في ذلكَ عند حديثِهِ عن ماهيَّةِ الأدبِ، وأدواتِ تحصيلِهِ:«وكانَ الغناءُ في الصَّدر الأوَّل من أجزاء هذا الفنِّ، لما هو تابعٌ للشِّعر، إذ الغناءُ إنَّما هو تَلحينُهُ، وكان الكُتَّابُ والفضلاءُ من الخَواصِّ في الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ يأخذُونَ أَنفسَهُمْ به، حرصًا على تَحصيلِ أساليبِ الشِّعرِ وفُنونِهِ، فلم يَكُن انتحالُهُ قادحًا في العدالةِ والمروءةِ»[1].

ثمَّ إنَّ في الشِّعر تخييلًا ليس مَظِنَّتَهُ النَّثرُ، فلو جادَتْ سحائبُ الكُتَّابِ من غَيْدَاقِ الصُّوَرِ ووَدْقِ الأَخْيِلَةِ ما جادَتْ، ما تَبلغُ سخاءَ مُزْنِ الشُّعراءِ الهَتَّانةِ إذا سحَّتْ، حتَّى إذاما صادفَتْ أرضًا يَبَابًا اهْتزَّتْ وربَتْ، وأَنبتَتْ من رَوْحِ الشِّعر ما سرَّ مَنظرُهُ، ولَطُفَ مَخبرُهُ، وكان حقيقًا أن يُقالَ فيه:«هذا الكَلامُ وإلَّا فلا». وقد صار هذا الأَمرُ ممَّا

[1]- المقدِّمة، ص: 632.

اتَّفقَتْ عليه الفِطَرُ السَّليمةُ، وأَطبقَتْ عليه الأَذواقُ القَويمةُ، ولا عِبرةَ بالشُّذوذِ، فَيَكفيكَ في الدَّلالةِ على قُبحِهِ اسْمُهُ، وعلى هُجنَتِهِ وَسْمُهُ، وقديمًا قالَ أَهلُ صناعةِ العربيَّةِ: «الشَّاذُّ يُحفَظُ ولا يُقاس عليه».

وقد اسْتهوَاني الشِّعرُ بموسيقَاهُ وخيَالِهِ، ومَجانِيهِ وظِلالِهِ، إذ وَجدْتُ فيه شِفاءَ عِلَّتي، ورِيَّ غُلَّتي، أَنتَشي للقَصيدةِ تَستَجيدُهَا الذَّائقَةُ، ويَهزُّني البَيتُ البَديعُ كمَا اهتزَّ العصفورُ بلَّلَهُ القَطرُ، إقبالًا من النَّفسِ على المعنَى الشَّريفِ، واللَّفظِ الطَّريفِ، والفكرَةِ النَّبيلَةِ، والعبارَةِ الجميلَةِ، أو ليس الشِّعرُ نَسْغَ الحياةِ؟ أو ليس هو صحائفَ القلوبِ قد سُطِرَتْ بمدادِ الشُّعورِ؟ إنَّ الشِّعرَ تَرجمةُ عالَمِ الشُّهود إلى عالَمِ الملَكُوتِ، والعُرُوجُ بالنَّفسِ من دَرَكَاتِ الحسِّ والمادَّةِ إلى مَراقِي الإنسانيَّةِ الحقَّةِ، بل لعلَّهَا تَصلُ إلى معارجِ الملَكيَّةِ في خالصِ نقائِهَا، وكمالِ صفائِهَا، فَتَشِفُّ وتَرِفُّ، وتَدنُو إلى سِدْرَةِ مُنْتَهَاهَا، فَتَكتَشِفُ سناءَ حقيقتِهَا وسنَاهَا، فَتَرجِعُ إلى عالَمِ الشَّهادةِ وقد تَطهَّرَتْ من الأَرجاسِ، وتَطيَّبَتْ من بَرَكَةِ الغَيبِ بعَرْفِ نَرجِسِهِ والآسِ، وتَحلَّتْ من كرائِمِ حَقائِقِهِ بلُؤلُؤِ يُمنِهِ والماسِ، فَتَهنَأُ بالًا، وتَنبسِطُ حالًا، ويَكونُ ذلكَ داعِيَهَا إلى عملِ الخيرِ، وإفشاءِ الحقِّ، وعشقِ الجمالِ.

وَلَـــــوْلَا خِـــــلَالٌ سَـــــنَّهَا الشِّــــعْرُ مَــــا دَرَى

بُغَـــاةُ العُلَـــى مِـــنْ أَيْـــنَ تُـــؤْتَى المَكَـــارِمُ

ولا زالَت الأَيَّامُ تَسقيني من شَهْدِ نَحلِهِ، وتَكلَؤُني من رُطَبِ نَخلِهِ، حتَّى قامَتْ في النَّفسِ أَسبابُ قَولِه، ودَوَاعِي الاهتمامِ بخدمَتِهِ، فأَكبَبْتُ على قراءةِ دواوينِهِ، وتصحيحِ عَروضِهِ وموازينِهِ، والتَّمييزِ بين غَثِّهِ وسَمِينِهِ، ومازالَت الأَيَّام ماضيةً بي في أَوديةٍ هَامَ مَنْ قَبلِي فيها، فَزَادَهُم الله على الضَّلالةِ هُيامًا وتِيهًا، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} (سورة الشُّعراء: 227).

وكانَ ما كانَ، حتَّى إذ بي أَقرأُ ديوانَ أميرِ شعراءِ الجزائرِ والشَّمالِ الإفريقيِّ، الأستاذِ الكبيرِ محمَّد العيد آل خليفة –رحمه الله–، وأنا أَتلُو القصيدةَ تِلْوَ القصيدةِ، آلمني ضَياعُ هذا النَّبيِّ بين قومِهِ، وما الشُّعرَاءُ إلَّا أنبياء، ولكنَّ رسالَتَهُم الشِّعرُ لا الشَّرائعُ، يَنهجُونَ للنَّاس سُبُلًا ذَلَّلَتْهَا اللَّفظةُ المتخيَّرةُ، والجملَةُ المحبَّرةُ، والتَّصويرُ البَديعُ، والتَّلحينُ والتَّسجيعُ.

وكانَ الَّذي آلَمَني من هذا الدِّيوانِ إخراجُهُ في صورةٍ معلولةٍ، وحُلَّةٍ مدخولةٍ، فَجَمعْتُ النِّيَّةَ على خدمةِ هذا السِّفْرِ الجليلِ، والاشتغالِ على إخراجِهِ في أحسنِ صورةٍ، ولكن كنتُ أُقدِّمُ الرِّجلَ وأَلْوِي بأُختِهَا، مَهابَةَ أن أُشوِّهَ

هذه الآياتِ المرصوفةَ الأبياتِ، وقد اعْتَاصَ عليَّ الأَمرُ وتوعَّرَ، والْتَوَى وتعسَّرَ، وصِرْتُ إلى مُغالَبَةِ الأَمانيِّ والتَّسويفِ، تَدفعُني الغَيرةُ على الدِّيوانِ، والحماسَةُ له، وتُثْني فَوْرَةَ إقدَامِي هَواجسُ القَلقِ من تَقصِيري في القيامِ على خدمتِهِ حقَّ الخدمةِ.

وبينَ العزمِ والعملِ شُعيرَةٌ رقَّتْ ودقَّتْ، فآليتُ على نَفسِي -وقد نَشِطَتْ من عِقالِ الهيبةِ والإحجامِ- أن أَقطعَ هذه الشُّعيرَةَ بحسامِ التَّوكُّلِ على الله، ورجاءِ المثوبةِ عن الاجتهادِ ولو كان في غيرِ المحزِّ، فقدَّمْتُ بين يدَيْ مُعالجتِهِ إِزماعِي، وصحَّحتُ قبل وُلوجِ عوالمِهِ إجماعِي. وذكرتُ قولَ الجاهليِّ:

وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

ولا يَفوتُني — في هذا المقام — أن أُبيِّنَ للقارئِ الكريمِ أسبابَ احتفالي بهذا الدِّيوان كلَّ هذا الاحتفالِ:

أوَّلًا/– قيمةُ ديوان محمَّد العيد آل خليفة -رحمه الله- المكينةُ في الأدب الجزائريِّ والعربيِّ، وهي تأتي من وجهين:

الوجهُ الأوَّلُ: يعدُّ هذا الدِّيوانُ سجلًّا حافلًا بأحداثِ التَّاريخِ، وأحوالِ المجتمعِ، وتَقلُّباتِ السِّياسةِ، ممَّا عاشتْهُ أُمَّتُنا في قُطرِنَا الجزائرِ، وفي امتدادِنَا العربيِّ والإسلاميِّ، حتَّى إنَّه يمكِنُ عَدُّهُ وثيقةً هامَّةً من وثائقِ التَّاريخِ. ولا بِدْعَ في ذلكَ، وها هو (عبد القاهر الجرجانيُّ) إمامُ أهلِ اللُّغةِ والأدبِ يقولُ عن الشِّعر وقيمتِهِ:«...فيه الحقُّ والصِّدقُ، والحكمةُ وفصلُ الخطابِ، وإنَّه مجْنَى ثَمَرِ العقولِ والألبابِ، ومُجتَمَعُ فِرَقِ الآدابِ، والَّذي قَيَّدَ على النَّاسِ المعانيَ الشَّريفةَ، وأَفادَهُم الفوائدَ الجليلةَ، وتَرَسَّلَ بين الماضِي والغابرِ، يَنقُلُ مكارمَ الأخلاقِ إلى الوَلدِ عن الوالدِ، ويُؤدِّي ودائعَ الشَّرفِ عن الغائبِ إلى الشَّاهدِ، حتَّى ترى به آثارَ الماضين مُخلَّدةً في الباقين، وعقولَ الأوَّلين مردودةً في الآخرين، وتَرى لكلِّ مَنْ رامَ الأدبَ، وابْتَغى الشَّرفَ، وطَلَبَ محاسنَ القَولِ والفعلِ، منارًا مرفوعًا، وعَلَمًا منصوبًا، وهاديًا مرشدًا، ومُعلِّمًا مُسدِّدًا، وتجِدُ فيه للنَّائي عن طلبِ المآثرِ، والزَّاهدِ في اكتسابِ المحامدِ، داعيًا ومُحرِّضًا، وباعثًا ومُحضِّضًا، ومُذكِّرًا ومُعرِّفًا، وواعظًا ومثقِّفًا...»[2]، فهكذا كان الشِّعرُ عند العربِ، وهكذا سَيَبقى إلى أن تدَعَ النَّاقةُ فَصيلَهَا.

ولَستُ إِخالُ أحدًا من أهلِ التَّخصُّصِ في الأدبِ العربيِّ عمومًا، وفي الأدبِ الجزائريِّ خصوصًا، يجهلُ قيمةَ هذا الدِّيوانِ في مُدوَّنةِ الشِّعرِ العربيِّ الحديثِ، فصاحبُهُ قد عاش أخصَبَ مراحلِ تاريخِ الجزائرِ ثقافةً وأحداثًا جسامًا،

---

[2]- عبد القاهر الجرجانيُّ: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمَّد شاكر، ص 15– 16.

جزائرَ ما بعد الحربِ العالميَّة الأولى إلى ما بعد الاستقلالِ بسنينَ. وعاصَرَ تاريخَ العربِ والمسلمين الحديثَ، بما فيه من نَكساتٍ ونَكباتٍ، وأَحلامٍ وآمالٍ، ويَصْدُقُ في شعرِهِ ما قالَهُ أَميرُ البيانِ في أَميرِ الشُّعراءِ:

يَتَمَثَّـــــلُ العَصْـــــرَ الحَـــــدِيثَ بِشِـــــعْرِهِ

حَـــــقَّ التَّمَثُّـــــلِ مِـــــنْ جَمِيـــــعِ جِهَاتِـــــهِ

وَلَـــــرُبَّ بَيْـــــتٍ يَسْـــــتَقِلُّ بِجُمْلَـــــةٍ

تُغْنِـــــي عَـــــنِ التَّـــــارِيخِ فِـــــي صَـــــفَحَاتِهِ

لَـــــمْ يَفْتَـــــتِنْ مِـــــنْ عَصْـــــرِهِ بِمَسَـــــاوِئٍ

كَـــــلَّا، وَلَـــــمْ يَغْمِطْـــــهُ مِـــــنْ حَسَـــــنَاتِهِ

مَـــــا حَـــــلَّ بِالإِسْـــــلَامِ حَيْـــــفُ مُصِـــــيبَةٍ

إِلَّا وَكَـــــانَ بِهَـــــا لِسَـــــانَ شَـــــكَاتِهِ

كَانَـــــتْ قَصَـــــائِدُهُ هِـــــيَ الصَّـــــوْتَ الَّـــــذِي

سَـــــرَّى عَـــــنِ الإِسْـــــلَامِ ثِقْـــــلَ سُـــــبَاتِهِ

بَعَثَـــــتْ بِـــــهِ رُوحَ الحَيَـــــاةِ كَأَنَّهَـــــا

هِـــــيَ صُـــــورُ (إِسْـــــرَافِيلَ) فِـــــي زَعْقَاتِـــــهِ

قَـــــدْ كَـــــانَ أَدْرَى النَّـــــاسِ بِالـــــدَّاءِ الَّـــــذِي

قَـــدْ حَـــطَّ هَـــذَا (الشَّـــرْقَ) عَـــنْ صَـــهَوَاتِهِ

دَاءٌ هُـــوَ الأَخْـــلَاقُ فِـــي اضْـــمِحْلَالِهَا

فَلِـــذَا تَـــرَى الأَخْـــلَاقَ رَأْسَ وُصَـــاتِهِ

أَشْـــعَارُهُ تَحْيَـــا وَتُحْيِـــي أُمَّـــةً

تَجِـــدُ الحَيَـــاةَ الحَـــقَّ فِـــي كَلِمَاتِـــهِ

الوجهُ الثَّاني: تَبرزُ قيمةُ الدِّيوانِ في جانبِهِ الفنِّيِّ من جهةِ أنَّه يَعكسُ وجهًا مشرقًا متألِّقًا لقطرٍ من أقطارِ العروبةِ والإسلامِ، ظلَّ كثيرٌ من النَّاسِ ومازالَ بَعضُهُم يَرونه خِلْوًا عن مَحمَدَة اللَّسَنِ، وفضيلةِ البيانِ، فجاء (محمَّد العيد) ونسَخَ بآياتِ أبياتِهِ أوهامَ المتوهِّمين، وحمَلَ رايةَ الشِّعرِ وأيُّ شعرٍ؟ انْصَبَّ سحائبَ هتَّانَةً، وتمثَّلَ صُوَرًا فتَّانَةً، فيه الرَّجَزُ والقَصيدُ، والموشَّحُ والنَّشيدُ، ما بين مطوَّلاتٍ ومُقطَّعاتٍ، رقَّتْ ألفاظًا، فَسرَّتْ ألحاظًا، وجَلَّتْ في مَعانيها، فأَغوَتْ من يُعانيهَا، قد وَرَدَ مناهلَ الحكمةِ يَنبوعًا ينبوعًا، ونزَفَ مناقِعَ السِّحر لدودًا ونشوعًا. فَيَنظِمُ سامياتِ الفِكَرِ في عِقْدِ نُضَارِهِ، ويَعقِلُ جوامِحَ الخواطِرِ في سِلْكِ إسارِهِ، فَيُدْني البعيدَ القَصِيَّ، ويَكشِفُ المخبوءَ الخَفِيَّ، فَتُسفِرُ عَرائسُ قَوافيه عن أَلَقِهَا، وتتبرَّجُ غِيدُ تصاويرِهِ مُزدانَةً بإصباحِهَا وفَلَقِهَا، حتَّى إذاما دلَّتْ بدَلِّهَا، وتَغنَّجَتْ وتَكسَّرَتْ، أَلفيْتَ خُطَّابَهَا مُشرَئِبَّةً أَعناقُهُم، مسحورةً عقولُهُم وأَحداقُهُم، هذا هو (محمَّد العيد)، وهذا هو شِعرُهُ، ومَن ركِبَ الآذيَّ شرِبَ الماذيَّ.

يُسْـــدِي وَيُلْحِـــمُ فِـــي البَلَاغَـــةِ حَائِكًـــا

حُلَـــلًا يَتِيـــهُ بِهَـــا القَـــرِيضُ وَيَرْفُـــلُ

أَغْنَـــاهُ عَـــنْ تَعَـــبِ الـــتَّعَلُّمِ طَبْعُـــهُ

إِنَّ العَــــــوِيصَ لَـــــــهُ يَهُـــــونُ وَيَسْـــــــهُلُ

إِنَّ البَلَاغَــــــــةَ فِـــــــي البَلِيـــــــغِ غَرِيـــــزَةٌ

لَا بِـــــــالعِلَاجِ يَنَالُهَـــــــا المُتَطَفِّـــــــلُ

وإذا كان (محمود سامي البارودي) رائدَ الكلاسيكيَّةِ العربيَّةِ، وزعيمَ مدرسةِ البعثِ والإحياءِ في الشِّعرِ الحديثِ، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وعبد المحسن الكاظميُّ، وإسماعيل صبري الكبير والصَّغير، وأحمد الصَّافي النَّجفيُّ، وأحمد محرَّم...، وغيرُهم من فُحولِ القصيدةِ العموديَّةِ في عصرنا الحديثِ، إذا كان كلُّ أولئكَ من أساطينِ صَرْحِ الكلاسيكيَّةِ العربيَّةِ، فإنَّ (آل خليفة) حاملُ لوائِهَا في الجزائرِ والمغربِ العربيِّ. لقد تجلَّتْ في شعرِهِ كلُّ خصائصِ هذه المدرسةِ الأدبيَّةِ، حتَّى صار شعرُهُ ملهمًا للفيفٍ ليس بالقليلِ من الشُّعراءِ في هذا المجالِ الجغرافيِّ من وطنِنَا العربيِّ، فكانت قَصائدُهُ صُوًى اهْتدَى بها أَربابُ الشِّعرِ، ومَعالمَ سَلَكوا على مَراشدِهَا سبيلَ القَريضِ، فكان (محمَّد العيد) مدرسةً شعريَّةً حقيقيَّةً؛ إذ ركِبَ في مضمارِ الشِّعرِ الفَرَسَ الأَبْلَقَ، وامتطَى الجَمَلَ الأَوْرَقَ، فحازَ قَصَباتِ السَّبقِ اقتدارًا، وأعلَى بِلَبِنِ الشِّعرِ منارًا، وكان نسيجَ وَحدِهِ.

إِذَا قَـــــالَ لَـــــمْ يَتْـــــرُكْ مَقَـــــالًا لِقَائِـــــلٍ

مُصِـــــيبٍ، وَلَـــــمْ يَـــــثْنِ اللِّسَـــــانَ عَلَـــــى هُجْـــــرِ

يُصَـــــرِّفُ بِـــــالقَوْلِ اللِّسَـــــانَ إِذَا انْتَحَـــــى

وَيَنْظُـــــرُ فِـــــي أَعْطَافِـــــهِ نَظَـــــرَ الصَّـــــقْرِ

ثانيًا/– قيمةُ الرَّجُلِ نفسِهِ، فـ(محمَّد العيد) رجلُ الإصلاحِ، وداعيةُ السَّلفيَّةِ، ولكنَّهُ في الوقتِ نفسِهِ المتنسِّكُ في محرابِ التَّصوُّفِ السُّنِّيِّ، لا ضيرَ عندَهُ في الجمعِ بين صفتين ظنَّ بعضُ من لا تحقيقَ له بالتَّاريخِ ولا بالعلمِ أنَّهما خُلِقَتَا لتتنافرَا، وما كانتَا إلَّا لتتدبرَا، وهذا وهمٌ تَلَبَّسَ بالمتطرِّفِ في المذهبين، فأقاموا حربًا بينهما مازال أُوَارُهَا

مشتعلًا، وشُواظُهَا متطايرًا، وإنَّ له في هذا المسلكِ سَلَفًا كثيرًا، يقولُ في قصيدةِ (رَعدُ البَشَائِرِ) مادحًا الإمامَ الإبراهيميَّ:

وَيَكْشِـــــفُ عَـــــنْ صُـــــوفِيَّةٍ سَـــــلَفِيَّةٍ

إِلَـــى وِرْدِهَـــا الصَّـــافِي (القُشَـــيْرِيُّ) أَلْمَعَـــا

ثمَّ هو العالمُ المربِّي، دَرَسَ العلومَ الشَّرعيَّةَ واللُّغويَّةَ على السَّنَنِ القديمِ، فحفظَ القرآنَ الكريمَ، وتَعاطَى مُتُونَ العلمِ المعروفةَ باستنباطِ مَخبوئِهَا، واسْتبطانِ مَركوزِهَا، فاسْتَوَى عودُهُ، واستقَامَ أُملُودُهُ، وأَينَعَ ثَمَرُهُ، وأَبدَرَ قَمرُهُ. فلمَّا تحقَّقَ فيه شرطُ التَّدريسِ تمكَّنَ في كُرسيِّهِ، وأَلقَى بمحلَّةِ التَّعليمِ بِعِصِيِّهِ، فأجَادَ وأفَادَ، وقوَّمَ المعوجَّ المنآدَ، وضَرَبَ لنفسه في معركةِ الهويَّةِ الجزائريَّةِ بسهمٍ وافرٍ، حتَّى استغرقَهُ جهادُ المبادئِ والقيمِ العربيَّةِ الأصولِ، الإسلاميَّةِ المنزعِ، وقد قالَ في قصيدةِ (يا معشَرَ الطُّلَّابِ) عند خَتمِهِ لكتابِ (قَطرُ النَّدَى):

يَـــا مَعْشَـــرَ الطُّـــلَّابِ هَـــلْ مِـــنْ مُنْصِـــتٍ

مِـــنْكُمْ لِـــوَحْيِ الشِّـــعْرِ فِـــي إِلْهَامِـــهِ

العِلْـــمُ صَـــرْحُ مَجَـــادَةٍ وَسَـــعَادَةٍ

وَمِـــنَ الـــتَّعَلُّمِ شِـــيدَ رُكْـــنُ قِوَامِـــهِ

وَالعِلْـــمُ أَعْمَـــالٌ تُـــزَاوِلُ لَا مُنَـــى

تُنْـــوَى فَسِـــيرُوا فِـــي هُـــدَى أَعْلَامِـــهِ

فَخُـــذُوا بِأَسْـــبَابِ العُلُـــومِ حَقِيقَـــةً

وَذَرُوا أَخَـــا الأَوْهَـــامِ فِـــي أَوْهَامِـــهِ

كما كان رجلًا حَمَلَ لواءَ الجهادِ بالكلمةِ في حربِ التَّحريرِ الجزائريَّةِ، فدبَّجَ بِيراعِ شعرِهِ صفحاتِ الجهادِ الجزائريِّ، وأرَّخَ لها في ملحمة (من وحي الثَّورة والاستقلال)، ولا غرابةَ في ذلك؛ فهو المسلمُ المشمَخِرُّ بإسلامِهِ، المتجلْبِبُ برداءِ الأنَفَةِ والإباءِ. كما هو العربيُّ الصَّميمُ في عربيَّتِهِ وعروبتِهِ، تَشرَّبَ تُراثًا اخْضَلَّتْ صفحاتُهُ بالمجدِ التَّليدِ، فسمعَ صَلْصَلَةَ السُّيوفِ في معاركِ الأبطالِ الغَطاريفِ، ورأى بعينِ الخيالِ لَوحاتِ الحماسةِ لَوَّنَهَا الأَجدادُ بأَصباغِ الإقدامِ والاستبسالِ، يُجندِلُونَ بحميَّتِهِم الفَوَّارةِ أجنادَ البَغيِ والعدوانِ، ويَجزُّونَ شَأْفَةَ الضَّيمِ، ويُثْخِنُونَ بأَرماحِ الحقِّ كُلُومًا غائرةً فيمن ظَنَّهُمْ لَيِّنِي العَرائكِ، مَوطُوئِي الجَنَابِ. ثمَّ هو الجَزائريُّ الَّذي امْتَزَجَتْ فيه دماءُ (يَعْرُبَ) بـ(مازيغ)، فأخَذَ من الجنسين خَلَّةَ عشقِ الحرِّيَّةِ، فَأَدَّبَ (روما)، وسادَ في البحرِ المتوسِّطِ أزمانًا، دانَتْ له فيها عَرانِينُ أَعلاجِ الفِرنجَةِ، فَعَفَّرَ أُنُوفَهُم وأَنَفَتَهُم في رَغَامِ الذِّلَّةِ والانكسارِ، كلُّ ذلك اجتمَعَ في نَفْسِ (محمَّد العيد)، واسْتقَرَّ في وجدانِهِ الشَّاعِرِ، فما سَنحَتْ فُرصةٌ للبَوحِ إلَّا وهَدَرَ سَيْلُهُ، واهْتَزَّ فَنَنُهُ، فأَخْرَجَ من غَوْرِهِ اليَواقيتَ والجواهِرَ، وأَيْنَعَ من عُلُوِّهِ بالثِّمارِ والأَزاهِرِ، كان منه هذا الأَمرُ دَيْدَنًا، حتَّى قَرَعَ بابَهُ داعي الرَّحيلِ، فنجدُهُ يمجِّدُ شهرَ الشُّهورِ (نوفمبرَ) وهو شهرُ الثَّورةِ الجزائريَّةِ:

نُـــــوفَمْبَرُ عِمْـــــلَاقُ الشُّـــــهُورِ بِبَأْسِـــــهِ

وَجَبَّارُهَـــا تُحْنَـــى الـــرُّؤُوسُ لَـــهُ جَبْـــرَا

نُـــوفَمْبَرُ (شَمْشُـــونُ) الشُّـــهُورِ بِأَرْضِـــنَا

أَلَـــيْسَ عَلَـــى مُحْتَلِّهَـــا هَـــدَمَ القَصْـــرَا؟

نُـــوفَمْبَرُ (هَـــارُوتُ) الشُّـــهُورِ بِعَصْـــرِنَا

وَ(مَارُوتُهَـــا) أَبْـــدَى بِثَوْرَتِنَـــا السِّـــحْرَا

أَذَاقَ (فَرَنْسَـــا) عَلْقَمًـــا بِكِفَاحِـــهِ

وَمِنَّـــا بِفَضْـــلِ الصَّـــبْرِ جَرَّعَهَـــا الصَّـــبْرَا

وَثَبْنَـــا عَلَيْهَـــا كَـــالنُّمُورِ جَـــرَاءَةً

وَثُرْنَـــا كَأُسْـــدِ الغَـــابِ نُرْعِبُهَـــا زَأْرَا

وَقُمْنَـــا إِلَـــى رَشَّاشِـــنَا بِرَصَاصِـــنَا

نُفَنِّـــدُ دَعْوَاهَـــا وَنُبْطِلُهَـــا جَهْـــرَا

زَحَفْنَـــا عَلَيْهَـــا نَـــزْدَرِي بِعَتَادِهَـــا

وَبِالنَّـــارِ وَالبَـــارُودِ نَصْـــهَرُهَا صَـــهْرَا

وَفِـــي النَّـــارِ وَالبَـــارُودِ أَبْلَـــغُ حُجَّـــةٍ

تُـــرَدُّ بِهَـــا الـــدَّعْوَى عَلَـــى مَـــنْ طَغَـــى كِبْـــرَا

كما أنَّ نَفْسَ (محمَّد العيد) على تَدَيُّنِهِ وتَصَوُّفِهِ، نَفْسٌ شَفيفَةٌ طَروبٌ، تَرى بعينِ الجمالِ وبصيرةِ الذَّائقةِ لَوحاتِ الفَنِّ مُجسَّدَةً في أَوجُهِ الحسانِ، وقُدودِ البَانِ، والأَعْيُنِ النُّجْلِ، المجلُوَّةِ بالكُحْلِ، تَرفُلُ في وَشْيِ الغُنْجِ والدَّلالِ، وتَنثَنِي انثناءَ الغصنِ إِنْ مالَ، يقولُ من قصيدةِ (الشِّعرُ العصريُّ في الغزلِ):

قَضَـــى اللهُ تَعْـــذِيبِي بِهَـــا قَبْـــلَ تَكْـــوِينِي

دَعُوهَـــا بِنِيـــرَانِ المَحَبَّـــةِ تَكْـــوِينِي

فَتَـــاةٌ أَتَـــتْ (عَـــيْنَ الصَّـــبِيَّةِ) بُكْـــرَةً

بِكَــأْسٍ مِــنَ البَلُّــورِ فِــي رَخْصِــهَا اللِّــينِ

يُلَاعِـــبُ صَــدْغَيْهَا النَّسِـــيمُ كَأَنَّمَــــا

يُلَاعِــبُ فِــي رَوْضِ الرُّبَــا زَهْــرَ نِسْــرِينِ

تَمِـــيسُ لِفَــرْطِ الــدَّلِّ فِــي خُطُوَاتِهَــا

كَغُصْــنِ النَّقَــا تَنْتَــهُ رَيَّــا الرَّيَــاحِينِ

كما تَسحَرُهُ الطَّبيعةُ بمباهجِهَا، فَتَفتِنُهُ الرِّياضُ والبَسَاتينُ، والنَّخلُ الباسقاتُ والرَّياحينُ، فَتُقبِلُ نفسُهُ على الحياةِ والفرحِ إقبالَ الظَّمآنِ على موردِ الماءِ، يَكرعُ بلا سُكرٍ، إذ معيَّةُ الله لا تُفارقُهُ اختيارًا لا إكراهَ فيه، بل دافعُهَا الحبُّ والهيامُ الصُّوفيُّ، وعلى شِرْعَةِ (ابن خفَّاجَةَ) سارَ فاتَّخذَ البحرَ أنيسًا، والجبلَ نَجِيًّا، يَبوحُ لهما بلَواعِجِ نَفْسٍ كدَّرَتْ صفوَهَا أَقذاءُ الحياةِ، وشَوائبُ المحنَةِ الإنسانيَّةِ في رحلتِهَا الأرضيَّةِ، فَيُنَاجِي جبَلَ (أبي المنقوشِ) قائلًا:

أَبَــا المَنْقُــوشِ هَــلْ تَــدْرِي بِحَــالِي

فَأَنْــتَ اليَــوْمَ جَــارِي فِــي الجِبَــالِ؟

أَبَــا المَنْقُــوشِ خَبِّرْنِــي فَــإِنِّي

أُحِــبُّ شَــفَاهَ مِثْلِــكَ بِالسُّــؤَالِ

فَفِــي مَنْقُــوشِ صَــخْرِكَ رَائِعَــاتٌ

مِــنَ الأَسْــرَارِ وَالحِكَــمِ الغَــوَالِي

هذه وَقفاتٌ عَجْلَى مع شاعرِ الجزائرِ الأكبرِ، وريحانةِ تاريخِهَا الأزهَرِ، وعُصَارةِ مِسكِهَا الأذفَرِ، في شعرٍ كأنَّهُ الوَشيُ المنشورُ، أو الرَّوضُ الممطورُ، أو الدُّرُّ المنثورُ، ألحانُهُ أعذبُ من نَغَمِ القِيانِ، وألحَنُ من المِزْهَرِ المِرْنَانِ. أفبعْدَ هذا كلِّهِ يجوزُ في شِرْعَةِ أَهلِ الذَّوقِ أن يَبقى ديوانٌ هذه قيمتُهُ عاطلًا عن حَلْيِ الصَّنعة والتَّجويد؟ كلَّا، وألفُ كلَّا.

وقبلَ عرضِ خطَّةِ العملِ الَّتي سَلكتُهَا في تصحيحِ نصوصِ الدِّيوانِ ومعالجةِ قصائدِهِ، وقبلَ بيانِ المنهجِ الَّذي ارتَضَيتُهُ في بعثِ هذه الأعمالِ الشِّعريَّةِ، سأُقدِّمُ بين يَدَيْ ذلك بكشفِ حالِ الطَّبعاتِ السَّابقةِ بوصفِهَا وصفًا مجملًا؛ إذ ليسَ الغَرضُ من هذه المقدِّمةِ جَرْدَ كلِّ خطأٍ أو نقيصةٍ وقعَتْ في سابقِ الطَّبعاتِ.

لقد طُبِعَت الأَعمالُ الشِّعريَّةُ لـ(محمَّد العيد آل خليفة) طبعاتٍ متفرِّقَةً من جهةٍ، وغيرَ منقَّحَةٍ ولا مصحَّحَةٍ من جهةٍ أُخراةٍ، وهذا بيانُ حالِ هذه الطَّبعاتِ:

أوَّلًا/- ديوان محمَّد العيد آل خليفة: وقد طُبِع من قبلُ خمسَ مرَّاتٍ، الأُولى منها سنة 1967م، والثَّانيةُ سنة 1979م، والثَّالثة سنة 1992م. وكان الطَّبعُ وقتئذٍ تحت إشراف مؤسَّسات الدَّولة، كوزارة التَّربية الوطنيَّة، أو المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب. ثمَّ أعادَتْ طبعَهُ (مؤسَّسة محمَّد العيد آل خليفة) سنة 2007م، وقد طَبعَتْهُ لها (دار الحكمة). لتنشرَهُ أخيرًا (دار الهدى) بلا جديدٍ يُذكَرُ سنة 2010م.

أمَّا الطَّبعاتُ الثَّلاثُ الأُوَلُ، فحملَتْ بين ثناياها تعليقاتِ لجَنةٍ من الأساتذةِ الكبارِ، وهم:

- الشَّيخ حمزة بوكوشة (1909م / 1994م).

- الشَّاعر جلُّول البدوي (1906م / 1999م).

- الدُّكتور صالح خرفي (1932م / 1998م).

- الشَّيخ محمَّد الطَّاهر فُضَلاء (1918م / 2005م).

وكانت الطَّبعةُ الأُولَى من هذه الطَّبعاتِ من قِبَلِ وزارةِ التَّربيةِ الوطنيَّةِ، وهي طبعةٌ فيها ما فيها من نقصٍ في المادَّة، وشحٍّ في التَّعليقاتِ، وقد كان على رأسِ الوزارةِ إذ ذاك الأستاذُ الدُّكتور: أحمد طالب الإبراهيميُّ، وهو السَّببُ في إخراج الدِّيوان من عالَم المخطوطِ إلى عالِم المطبوعِ، لذا وجدْنَا الشَّاعرَ يَعترفُ بفضلِهِ عليه فيقولُ:

سَـــــيَحْمَدُ دِيــــوَانِي لِـ(أَحْمَــــدَ طَالِـــبِ)

يَـــدًا مِنْــــهُ طُـــولَى قَدَّمَتْـــــهُ لِيُنْشَـــــرَا

تَحَمَّـــــــلَ أَعْبَــــــاءَ الــــــوِزَارَةِ قَــــادِرًا

فَـــــأَوْرَدَ عَـــــنْ رَأْيٍ سَـــــدِيدٍ وَأَصْـــــدَرَا

وَوَكَّـــــلَ بِالــــــدِّيوَانِ أَكْفَــــــأَ نُخْبَـــــةٍ

بِتَبْصِـــرَةٍ أَعْطَـــى بِهَـــا القَـــوْسَ مَـــنْ بَـــرَى

لَقَــــدْ أَدْلَجَـــــتْ وَالصِّــــدْقُ رَائِـــــدُ رَكْبِهَـــــا

فَــلَا رَيْـــبَ عِنْــدَ الصُّــبْحِ أَنْ تَحْمَــدَ السُّــرَى

أمَّا ميزةُ الطَّبعتين اللَّاحقتين، فهي إضافةُ بعضِ القصائدِ الَّتي أَغفلَتْ ذكرَهَا الطَّبعةُ الأُولى للدِّيوانِ، كما تمَّ تَطعيمُ أصلِ الدِّيوانِ بتعليقاتٍ أكثرَ.

إنَّ هذه الأعمالَ الشِّعريَّةَ كانت لها رحلةٌ طويلةٌ شاقَّةٌ في عالَمِ النَّشرِ والطَّبعِ، فبعد أن صنعَ (محمَّد العيد) له اسمًا في حلبة الشِّعرِ أثناءَ تَوهُّجِ نجمِ الحركةِ الإصلاحيَّةِ على يدِ (جمعيَّة العلماء)، لفتَ إليه الأنظارَ، وكان يَرقُبُهُ هواةُ الشِّعرِ ونَقَدَتُهُ على السَّواءِ، وعلى رأسهم إمام العلماء والأدباء العلَّامة محمَّد البشير الإبراهيميُّ، والَّذي كانت نفسُهُ توَّاقَةً لطبعِ شعرِ محمَّد العيد. يقولُ في هذا المقام:«وحرامٌ أن يبقى شعرُ ذلك الشَّاعر الفحل غيرَ مدَّونٍ ولا مطبوعٍ. ولكن من المسؤول عن ذلك؟ المسؤولُ الأوَّلُ هو الشَّاعرُ نفسُهُ؛ فقد أردناه على جمع شعره، وكفيناه مؤنة التَّصحيح والتَّعليق والإنفاق، فأبَى وتصعَّبَ، وتفشَّى العذرُ منه وتشعَّبَ، وما ذلك في نظرنا إلَّا أثرٌ من آثار تلك الحالة النَّفسيَّة الَّتي أشرنا إليها»[3] وانبَرَى لمهمَّةِ جمعِ قصائدِ الشَّاعر تلميذُهُ الحظيُّ المخلِصُ ورَاوِيَةُ شعرِهِ (أحمد بوعدُّو)

---

[3]- جريدة (البصائر)، العدد (94)، سنة 1949م.

سنة 1952م. ولما أن أقامَ الإمامُ الإبراهيميُّ في (مصرَ) كانت لدَيه نسخةٌ من الدِّيوان اسْتَصحَبَهَا معه لأجل الطَّبعِ، ولكن لم يَحصُلْ مأمولُهُ لأسبابٍ مجهولةٍ، مع حرصِهِ الشَّديدِ على ذلك، يقولُ الأستاذُ الدُّكتورُ صالح خرفي:«ويومَ التَحقْتُ بالقاهرة سنة 1957م كنْتُ كثيرَ التَّردُّدِ على الشَّيخِ في مكتبِ (جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين) في شارعِ شريف. فكنْتُ أجدُ الشَّيخَ موزَّعًا في جريدة (البصائر) بين (عيون البصائر) و(عيون الشِّعر) عند محمَّد العيد، تنقيبًا، وتوثيقًا، وتعليقًا... وكان زميلُنا الدُّكتور أبو القاسم سعد الله اليدَ اليمنَى للشَّيخِ في هذه المهمَّةِ المضنيةِ...»[4]. إلى أَنْ كانت الطَّبعةُ الأولى؛ أي طبعةُ وزارة التَّربية الوطنيَّة سنةَ 1967م كما ذَكَرْنَا من قبلُ.

ولم تأتِ طبعةُ (دار الهدى) بالجديدِ؛ إذ كانت نسخةً عن الطَّبعات السَّابقة لا غيرُ، كما أنَّ طبعةَ (مؤسَّسة محمَّد العيد آل خليفة) جاءَتْ منقوصةً من مقدِّمة الدُّكتور أحمد طالب الإبراهيميِّ، ومن تَقديم والدِهِ العلَّامةِ الأديبِ محمَّد البشير الإبراهيميّ -رحمه الله-، ومن كلمة أميرِ البيانِ (شكيب أرسلان)، بالإضافةِ إلى جملةِ الأخطاءِ الَّتي كانَ بالإمكانِ تفادِيهَا، وليسَ في هذه الطَّبعةِ من جديدٍ إلَّا مقدِّمة الرَّئيس عبد العزيز بوتفليقة.

ثانيًا/- العيديَّات المجهولة: وهي مجموعةٌ لا بأسَ بها من القصائد الَّتي لم تُنشَر في (ديوان محمَّد العيد)، وقد قامَ بجمعِهَا، والتَّقديم لها بمقدِّمةٍ ضافيةٍ، وشَرْحِ بعضِ غريبِهَا، الأستاذُ الدُّكتور: محمَّد بن سمينة -رحمه الله-، وطُبعَت طَبعَتين مُختلِفَتين: الأُولَى كانت بعنوان (تكملة ديوان محمَّد العيد آل خليفة) ، والَّتي طبعتْهَا (دار الغرب الإسلاميِّ) سنة 1997م، والثَّانيةُ كانت بعنوان (العيديَّات المجهولة)، والَّتي طُبعَت على نفقة (الصُّندوق الوطنيِّ لترقية الفنون والآداب وتطويرها) التَّابع لوزارة الاتِّصال والثَّقافة سنة 2003م.

وقد كان عملُ الأستاذِ محمَّد بن سمينة -رحمه الله- جليلًا، إذ جمَعَ شتاتَ ما تخلَّفَ من قصائدِ (محمَّد العيد) ولم يُطبَعْ في ديوانِهِ: من النُّسخةِ المخطوطةِ (نسخة بوعدُّو)، ومن المجلَّاتِ والصُّحفِ الوطنيَّةِ، ومن أُسرةِ الشَّاعرِ ومعارفِهِ.

والأستاذُ بن سمينة خبيرٌ بموضوعِ (محمَّد العيد) وشعرِهِ، فقد كتَبَ فيه ثلاثةَ أعمالٍ:

- محمَّد العيد آل خليفة-شعره الإسلاميُّ (رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، سنة 1989م).

- محمَّد العيد آل خليفة (سلسلة: شخصيَّاتٌ لها تاريخٌ)، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989م.

---

(4)- محمَّد العيد خليفة: صالح خرفي، ص29-30.

- محمَّد العيد آل خليفة-دراسةٌ تحليليَّةٌ لشعره، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، سنة1992م.

ثالثًا/- مسرحيَّة (بلال بن رباح) الشِّعريَّة: وهي نصٌّ مسرحيٌّ سَلِسُ الموسيقى، جميلُ اللُّغة، طُبع في (المطبعة العربيَّة) سنة 1938م مستقلًّا، كما طُبِعَ مُلحَقًا بكتاب (محمَّد العيد آل خليفة) للدُّكتور صالح خرفي.

بعد هذا البيانِ لحالِ أصولِ مادَّةِ هذه الأعمالِ الشِّعريَّةِ الكاملةِ، صار لزامًا عليَّ أن أُوضِّحَ معالمَ منهجي في معالجتِهَا، ومراحلَ ذلك بالتَّفصيل:

أ/- ضَمُّ الأُصولِ الشِّعريَّةِ لـ(محمَّد العيد) في عملٍ واحدٍ، أي أنَّ عملي هذا هو مجموع:

الدِّيوان.

تكملة الدِّيوان (العيديَّات الجهولة).

مسرحيَّة (بلال بن رباح) الشِّعريَّة.

قصائدُ جديدةٌ معدودةٌ.

وهذا الأَمرُ كان أملًا للإمام الإبراهيميِّ -رحمه الله- ولغيره من الَّذين اشتغَلُوا على آثارِ الأستاذِ (محمَّد العيد)، فها هو الدُّكتُور محمَّد بن سمينة -رحمه الله- يقول في هذا السِّياق:«وإنَّ الأملَ كبيرٌ أن يُدمَجَ ما صَنَعتُهُ في هذا العملِ مع الجزءِ المطبوعِ، ويُنسَّق هذا وذاك في مجموعةٍ واحدةٍ»[5]

ب/- إعادةُ ترتيبِ القصائدِ الَّتي وقعَ فيها الخلطُ من جهةِ التَّصنيفِ، مع الحفاظِ على الإطارِ العامِّ لتصنيفِ القصائدِ على وَفقِ المضامينِ العامَّةِ، ولكن بوضعِ منهجٍ جديدٍ غيَّرَ من ملامحِ تَصْنِيفَيْ (الدِّيوان) و(العيديَّات المجهولة)؛ إذ وقَعَ جماعةُ الأساتذةِ الَّذين اشتغَلُوا عليهما في خلطٍ كبيرٍ عند تصنيفِ القصائدِ، سواءٌ من جهةِ تَصنيفِهِمْ لها على وَفْقِ المجالاتِ المضمونيَّةِ، فأَنْشَأُوا مجالاتٍ الأَنفعُ والأَقربُ للذَّوقِ ضمُّهَا مع مجالاتٍ أُخَرَ، كمجالِ (اللُّزوميَّات)، و(الذِّكريات)، و(المتفرِّقات). كما وقَعَ الخلطُ في المجالِ المضمونيِّ الواحدِ؛ إذ كانت القصائدُ مرتَّبَةً على غير معيارٍ محدَّدٍ، فارْتَأَيْتُ أن يكونَ ترتيبُهَا على وَفْقِ زمنِ نظمِهَا، وأَخَّرْتُ القصائدَ المجهولةَ تاريخِ النَّظمِ إلى آخرِ كلِّ مجالٍ مضمونيٍّ، إلَّا الَّتي ورَدَتْ فيها إشارةٌ إلى زمنِ النَّظمِ وإنْ كانَ على غيرِ سبيلِ الدِّقَّةِ، فجاءَتْ أبوابُ هذه الأعمالِ على هذا التَّرتيبِ:

---

[5]- محمَّد بن سمينة: العيديَّات المجهولة، ص 23.

البابُ الأوَّلُ: في الطَّبيعةِ والغزلِ.

البابُ الثَّاني: إسلاميَّاتٌ، وأخلاقيَّاتٌ، وحكميَّاتٌ.

البابُ الثَّالثُ: في الوطنِ، والثَّورة، والقوميَّةِ العربيَّةِ.

البابُ الرَّابعُ: اجتماعيَّاتٌ، وإخوانيَّاتٌ.

البابُ الخامسُ: المراثي.

البابُ السَّادسُ: الألغازُ.

البابُ السَّابعُ: الأناشيدُ.

البابُ الثَّامنُ: الشِّعر المسرحيُّ.

ج/- ضَبطُ نصوصِ القصائدِ جميعِهَا ضبطًا متقنًا كاملًا، فأَحقُّ كلامٍ بالضَّبط هو الشِّعرُ، لما فيه من خَصيصَةِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ، وغيرِهَا من الخصائصِ الَّتي تُراعِي الميزانَ الموسيقيَّ.

د/- شَرْحُ المفرداتِ الصَّعبةِ، خاصَّةً أنَّ الشَّاعرَ تُراثيٌّ كلاسيكيٌّ، يُعنَى بتخيُّرِ الألفاظِ وانتقائِهَا، وقد أُثبِتُ لِلَّفظةِ الواحدَةِ مَعنَيين مُختلِفَين، لجوازِ احتمالِهِمَا في الكلامِ على وجهين؛ إذ «المعنَى في صدرِ الشَّاعرِ» كما قالوا، كما أنَّني راعيتُ في شرحِهَا مستوى القُرَّاء جميعًا، خاصَّةً النَّاشئةَ في مدارسِنَا الَّتي يَنبغي أن تَشِبَّ على مطالعةِ وسماعِ مثلِ شعرِ (محمَّد العيد) الَّذي يُصلِحُ النُّفوسَ، ويَغرِسُ القِيَمَ، ولذا فلا يَستغرِبْ بعضُ من له اطِّلاعٌ في العربيَّةِ شرحي لمفرداتٍ هي في مُعجمِهِ من المعروفِ المألوفِ، كما أنَّني قد أُكرِّرُ شرحَ لفظةٍ بعينها في قصائدَ كثيرةٍ، وذلك أنَّ القارئَ قد يتصفَّحُ الدِّيوانَ في بعض قصائِدِهِ لا كلِّهَا، فيقعُ نظرُهُ على لفظةٍ غيرِ مشروحةٍ وكان الحقُّ أن تُشرَحَ.

هـ/- التَّعليقُ على بعضِ الأبياتِ من حيثُ معانِيهَا واقتباسُهَا، وما أكثرَ اقتباسَ (محمَّد العيد) من التُّراثِ، مع الاحتفاظِ بكثيرٍ من تعليقاتِ أصولِ الدِّيوانِ والتَّكملةِ، اعترافًا منِّي بضعفي أمام الأساتذةِ الَّذين اشتغلوا على تصحيحِ ديوانِ (محمَّد العيد)، وهم الشُّيوخ: حمزة بوكوشة، جلُّول البدوي، صالح خرفي، محمَّد الطَّاهر فُضَلاء، وكذا الأستاذ: محمَّد بن سمينة –رحمة الله عليهم جميعًا-. وقد رَمزتُ لتعليقاتِ الأساتذةِ المذكورينَ بالحرفِ (أ)؛ أي (الأصلُ)، فهم أَصلُ هذا العملِ، وما أنا إلَّا قاطفُ ثَمَرٍ. أمَّا تعليقاتُ الأستاذِ بن سمينة فَرمزْتُ لها بالحرف (م)، وهو

الحرفُ الأوَّلُ من اسمه (محمَّد)، وقد أُسقِطُ بعضَ تعليقاتهم –وقليلًا ما أَفعلُ– وأُعوِّضُهَا بتعليقاتٍ أَرَى أنَّها أَوفَى منها في المادَّةِ أو الصِّياغةِ.

و/– التَّرجمةُ للأعلامِ الواردِ ذِكرُهُمْ في متنِ القصائدِ ترجمةً موجزةً، تعريفًا للأُمَّةِ برجالها.

ز/– اسْتخرَاجُ البحورِ الشِّعريَّةِ لكلِّ قصائدِ الدِّيوانِ.

هذا منهجي في صَنْعَةِ الأعمالِ الشِّعريَّةِ الكاملةِ للأستاذِ الكبيرِ (محمَّد العيد آل خليفة)، حاولْتُ أن يكونَ ذريعتي إلى الوفاءِ بواجبِ ودَينِ خدمةِ شعرِ أميرِ شعراءِ الجزائرِ والشَّمالِ الإفريقيِّ خيرَ خدمةٍ، آملًا أنَّني أَسَيْتُ الكَلْمَ، وسَدَدْتُ الثَّلْمَ، ورَتَقْتُ الفَتْقَ، ورَقَعْتُ الخرْقَ، فهذا مُنتَهى المرادِ، وغايةُ الأملِ.

ثمَّ إنِّي –أيُّها القارئُ الكريمُ– أَستمنِحُكَ العفوَ عن الزَّلَّةِ، والإقالةَ من العثرةِ، وإعذاري وإعتابي؛ إذ لا اقترافَ مع اعترافٍ، ولا جُناحَ مع الانتصاحِ، وقد أَقررْتُ لكَ بنقيصَتي، وأَشهرْتُ افْتِقاري وعَجْزي، ثمَّ إنَّ لي في كرمِ عفوِكَ مطمعًا، والعَفوُ أَقربُ للتَّقوى، ولي في رجاءِ الصَّفحِ منكَ مَنْزِعًا، والصَّفحُ أَكرمُ للعُقبَى، فَارْأَبِ الثَّأْيَ حيثما وَجدتَهُ، ورُمَّ الثَّلْمَ أَنَّى وقفْتَ عليه، ولك منِّي شكرانٌ موصولٌ باعترافٍ، شكرانٌ على النَّصيحة لي، واعترافٌ بفضلِ المناصحةِ للدِّيوانِ، كلُّ ذلك يُزجِيهِ دعاءٌ بظهرِ الغَيبِ، وأَملٌ في وُصلَةٍ جامعةٍ بين أهلِ رَحِمي من المشتغلين بعوالمِ الشِّعرِ الفسيحةِ على تنقيحِ ما قد يَقَعُ في عملي هذا من أغلاطٍ، بأيَّةِ قناةٍ كان اجتماعي بهم، ووُصْلَتي لهم، ولا تَنْسَ –عزيزي القارئَ– أن تُنشِدَ في هذا المقامِ قولَ الحريريِّ في (مُلْحَتِهِ):

فَـــــانْظُرْ إِلَيْهَـــــا نَظَـــــرَ المُسْتَحْسِـــــنِ
وَحَسِّـــــنِ الظَّـــــنَّ بِهَـــــا وَأَحْسِـــــنِ

وَإِنْ تَجِـــــدْ عَيْبًـــــا فَسُـــــدَّ الخَلَـــــلَا
فَجَـــــلَّ مَـــــنْ لَا عَيْـــــبَ فِيـــــهِ وَعَـــــلَا

والحمدُ لله ربِّ العالمين